

الفرسان الثلاثة.. رواية مثيرة للجدل بعد قرنين على صدورها

ألكسندر دوما.. ليس أكثر إدهاشا من روايته غير حياته الصاخبة



ثلاثة رابعهم «دارتانيون»

وتساعت حول مصر أمثاله من أدباء العالم العربي الذين طوهم النسيان. تمت ترجمة أعماله إلى أكثر من 100 لغة وتحويل بعضها إلى أفلام ومسلسلات.

وفي السينما العربية هناك أكثر من فيلم تناول الرواية نذكر منها الفيلم الذي قدمه المخرج توجو مزراحي عام 1941 ويحمل نفس اسم الرواية «الفرسان الثلاثة» كتب سيناريو وحوار الفيلم بمشاركة مزراحي، بديع خيري، وقام ببطولته كل من فوزي الجزايرلي، عقيلة راتب، إحسان الجزايرلي، فرديوس محمد، محمد الديب، حسين المليجي، بشارة واكيم، فؤاد شفيق، أحمد الحداد، حسن صالح وحسن راشد.



لا وجود لكلمة مجانية في رواية دوما فكل جملة مرتبة حسب تصنيف صاحبها وبلغة فرنسية فائقة الإعجاز

كما قدم نجم الكوميديا إسماعيل ياسين في العام 1961 إنتاجا جديدا لرواية الفرسان الثلاثة وينفس الاسم، من إخراج فطين عبد الوهاب وكتب السيناريو والحوار أبو السعود الإبياري، وشارك إسماعيل ياسين البطولة كل من محمود المليجي، عبدالسلام النابلسي، محمود عزمي، رجاء الجداوي، عبدالمنعم إسماعيل، أنور محمد، نجمة إبراهيم، فوزية إبراهيم، محمد صبيح، أحمد ثروت، عبدالغني النجدي، سامية رشدي وبدر نوفل.

«الفرسان الثلاثة» رواية أسيرة، شغلت الصغار والكبار، النساء والرجال، وظل يعشقها كل من قرأها، وخصوصا بلغتها الأم حيث لا يزال طعمها تحت لساني منذ أيام الطفولة، وأنا اجلس الآن في مقهى ريشيليو ببنون، عند ساحة جان دارك.. ما أقربك وأبعدك أيها التاريخ.

حيث أتهمت بمختلف العلاقات الجنسية، على الرغم من عدم وجود أي دليل يدعم صحتها. وكان دوما قد كتب ثمانين قصص عن الملكة أنطوايت.

من المظلوم ومن الجاني

ما يلاحظه المرء في رواية «الفرسان الثلاثة» أن كل شخصية في أساسها مأخوذة من شخصية حقيقية، فالكاردينال ريشيليو والملك لويس الثالث عشر كانا شخصيتين تاريخيتين، ولكنهما لم يكونا متنافسين، كما في الرواية، بل إن قوة ريشيليو أتت من دعم الملك له. وكذلك دارتانيون، والفرسان الثلاثة أنفسهم، وديوق بكنغهام والشخص الذي اغتاله، وحتى شعار «الجميع من أجل الفرد، والفرد من أجل الجميع» لم يكن من اختلاق دوما، حيث أخذ من شعار معروف في التاريخ السويسري أي أن دوما كاتب مؤرخ، ولا يدع شيئا لمحض الصدفة والمصادفة. لكن كل شيء كان أشد الالتصاق والترايب مع حياة دوما ونزواته العجيبة حتى أنه حين عاد إلى فرنسا عام 1864 وجد نفسه غارقا في الديون، وزاد على ذلك حبه للعلاقات النسائية التي كلفته الكثير من الأموال.. إنه ألكسندر العجيب.

تدخلك الرواية في متاهة من هو المظلوم ومن هو الجاني، وذلك عبر علاقات تفوح مؤامرة وخيانة، وكان ذلك من طبيعة الذات البشرية كما هو حاصل في روايات شكسبير. لتتوقف مرة أخرى عند هذه الرواية الأسيرة، ليست كل المتضادات متلاقية مثل الوفاء والغدر، المؤامرة والإخلاص، الصداقة والعداوة، والفرسية والخذلان؟

لا وجود لكلمة مجانية في رواية دوما. كل جملة مرتبة حسب تصنيف صاحبها ذي المزاج الفني المدهش، وبلغة فرنسية فائقة الإعجاز. تحولت الرواية إلى أفلام ومسلسلات وحلقات وألعاب كرتونية، حتى أنهم وصفوها بـ«الرواية المعجزة» لكثرة أحداثها وهرمية إثارها ودقة تفاصيلها، بالإضافة إلى فصولها الساخنة. باليست مجرد تاريخ لحقبة الثالث عشر كما يدور في خلد بعضهم، وليست درسا «أخلاقيا» كما يصفها السطحيون من القراء والنقاد، بل قصة في غاية التعقيد والمساءلة حول قضايا وجودية أشد نقاشا وجدالا مما يظن البعض.

وقفت شخصيا عند قبره في بانتيون بباريس، حيث يستقر بين عظماء الأدب الفرنسي الآخرين مثل منافسيه فيكتور هوغو وإميل زولا وجان جاك روسو،

وفي خضم كل ذلك نجد الكثير من الإغراءات الجنسية والعلاقات العاطفية ذات الأهداف الخبيثة أحيانا، ومقتل البعض مثل دوق بكنغهام، وفي نهاية المطاف ينجح الفرسان في مسعاهم، ويضم دارتانيون إلى فرسان الملك.

الأ يذكر الأمر بالروايات البوليسية الحديثة على نمط العميل 007 أو جيمس بوند، وذلك على غرار قصة الغواية التي تقضي إلى الخيانة كما هو الشأن بالنسبة إلى حكاية تسالومي ويوحنا المعدان أو ما يفسره المفسرون بـ«الخيانة المقدسة» على نمط يهودا الأسخريوطي، وكيف باع المسيح وتلاميذه بثلاثين من فضة.

إحالات كثيرة تقضي إليها «الفرسان الثلاثة» وذلك من خلال التسمية والترقيم والترميز، حتى أن رواية حراس المعبد، المنسوبة إلى الماسونية، تكشف، فيما تكشف، صحة مقولة المجموعة مع الفرد والفرد مع المجموعة، في توليفة براغماتية وسياسية مثيرة للجدل والسجال.

أن تكون مع الملك في حين لا يعلم الملك ذلك أو أن تحرص على السلطة، أكثر من أن تحرص عليك السلطة، مقولة أكتتها رواية «الفرسان الثلاثة» في مواربة ذكية، قال من خلالها دوما إن الثلاثة لم يكونوا ثلاثة بل «أربعة»، كما أن اسم الوردة لم يكن وردي بل شيئا آخر كما دل على ذلك الإيطالي المتأثر به أمبرتو إيكو في روايته الشهيرة.

لم يعرف التاريخ قصة أكثر ريبية من «الفرسان الثلاثة» وأبطالا أكثر إخلاصا بعد تحقق، مثل دارتانيون ورفاقه.. كانت ولا تزال رواية مثيرة للجدل بعد ما يقارب القرنين على صدورها. هي رواية صغيرة، حيث تكونت الطبعة الفرنسية من سبعين صفحة، واحتوت على جميع أنواع الإثارة الأدبية لامثالها بالفصائح الجنسية والسياسية للطبقة الحاكمة الفرنسية، وعلى الأخص عائلة الملك لويس الثالث عشر نفسه.

ومن الواضح أن القراء الفرنسيين، كما يقول الكاتب زيد خلدون جميل، استمتعوا بتلك الفصائح الملكية، ما يدل على قلة احترامهم للنظام الملكي، حتى كون عشيق الملكة إنجليزية لم يزعجهم. ويشير إلى أن الرواية احتوت كذلك على الكثير من الإشارات الجنسية، ولذلك اضطر المترجم الإنجليزي للرواية إلى حذفها كي تكون مقبولة من قبل السلطات البريطانية. ومن الملاحظ أن كل امرأة متزوجة في الرواية لديها عشيق، وكل رجل فيها لديه علاقات غرامية. ومن الممكن أن دوما كان قد اقتبس حكاية علاقة الملكة الجنسية من إشاعة قديمة عن الملكة ماري أنطوايت،

وقته هناك في الكتابة قبل أن يفوقه الدين ويصبح مفلسا ما اضطره للهروب إلى بلجيكا بعد بيع ممتلكاته.. ليس أكثر إدهاشا من روايته غير حياته الصاخبة؟

عاش صاحب «الكونت دي مونت كريستو» حياة مثيرة، شويها الكثير من الريبة والتوجس والفزع، صاحب الأمراء وعاصم الثورات وجمال في الأفاق، خاض المعارك وامتلك القصور ثم أفلس بعد أن اغدق ماله على المفلسين..

إنه أمير المفلسين بامتياز. يكفى أن دوما، صديق غاربيالدي، مؤخد إيطاليا، كما أنه عاش أسخن أحداث القرن التاسع عشر، ودونها في مقالات ومسرحيات يعترف بقيمتها خصوصه قبل أعدائه.. كم كنت مدهشا أيها المدهش.

ومثل كل معلم ذي ضريبة قاضية، تبدأ أحداث رواية «الفرسان الثلاثة» عام 1625 عندما حاول النبيل الشاب دارتانيون الانضمام إلى فرسان الملك الفرنسي لويس الثالث عشر، ويبدأ رحلة إلى باريس يتواجه فيها مع رجال رئيس الوزراء الفرنسي الكاردينال ريشيليو، ويتصادق مع ثلاثة من فرسان الملك مكونا معهم فريقا متماسكا شعاره «الجميع من أجل الفرد، والفرد من أجل الجميع» حيث يدافعون عن مصالح فرنسا دون علم الملك. ويكتشفون أن ملكة فرنسا على علاقة غرامية بالإنجليزي دوق بكنغهام، وأن ريشيليو كان يريد فضحها لحقه عليها لرفضها تحرشاته الجنسية، وكذلك للبدع برب بين فرنسا وإنجلترا. ويقابل دارتانيون ورفاقه رجال ريشيليو في فرنسا وإنجلترا ويواجهون دهاء جاسوسة حسنة بالغة الخطورة، كانت تعمل لصالح ريشيليو.

كل شيء في هذه الرواية يدعو للريبة والالتباس فشخصياتها ليست ثلاثا كما يوحي عنوانها بل أربع، وأحداثها تدور عام 1625، لكنها نُشرت سنة 1844، وعليها بُنيت أحداث وأُنشئت أفلام وسلاسل ومغامرات كرتونية، وحتى ألعاب فيديو، مما يجعل منها رواية ليست ككل الروايات.

فرنسا ونحن نعلم ثم نعلم.. كانت هذه كلمات الرئيس الفرنسي جاك شيراك عام 2002 في ذكرى مرور مئتي عام على ولادة أكثر الناس شغفا بالتاريخ واستحقاقاته.

ألكسندر دوما، الملقب بالثيطان الأسود، بسبب لون بشرته، كان مدهشا في كل شيء. حياته المثيرة كانت أسيرة، وزيجاته، وعلاقاته ومغامراته العاطفية، وانزياحاته السياسية جعلته محطة إعجاب مثل نبيل ليس ككل النبلاء، حتى أن الكاتب المسرحي الإنجليزي واتس فيليبس قال عنه «هو أكثر الناس كرسا وطبية في العالم، كما كان أكثر الناس حبا للبهجة والتسلية وأكثر مخلوق مزهو بنفسه على وجه الأرض. مثل لسانه كمثل طاحونة هوائية، لا تعرف لمن ستوقف عن الحركة ما أن يتم إطلاقها، خاصة إذا كان الموضوع عن شخصه».

ما أروعك يا ألكسندر وانت ترتشف الكلمات كما يرتشق ويتمنطق بأطالك سيوفهم المسلولة بأزيائهم الأنيقة وحركاتهم المدهشة فوق الممرات المخملية في شيء يشبه راقصي التانغو كما لو أننا في عصر فيفادلي.. كنت أنيقا في كل شيء يا سيد الكلمات.

ألكسندر دوما، أو الرجل الذي أراد أن يقول كل شيء، ولم يقل شيئا.. انتقمتم لأبيك وتاريخك.. من قال إن الكتابة ليست فعل انتقام؟ رواية «الفرسان الثلاثة» تدهش قراءها في كل عصر ومصر، إلى درجة أن صنفها النقاد والدارسون من أجمل قصص التاريخ، وصنف الفرنسيون صاحبها وتوجهوه على رأس من باتوا يعرفون برواد المسرح التاريخي، لما لدوما من قدرة على استلهام الماضي وتوظيفه في خدمة الحاضر.

أمير المفلسين

الشيء من ماتاه لا يُستغرب، ونحن إزاء رواية فرنسية ولد صاحبها توماس ألكسندر دوما في المستعمرة الفرنسية سان دومينيك المعروفة حاليا بـ«هايتي»، وهو ابن مُختلط الأعراق لألكسندر أنطوان ديفي دي لا باليتيري، الماركيز من النبلاء الفرنسيين ومفوض عام في مدفعية المستعمرة، ووالده ماري سيسيت دوما، كانت من الرقيق وتحدت جذورها من أفارقة منطقة البحر الكاريبي.

غادر دوما في صباه إلى فرنسا مع والده وتلقى هناك تعليمه في المدرسة العسكرية وانضم إلى الجيش عندما كان شابا. اتخذ لقب والدته (دوما) بعدما انقطعت علاقته بالده. تمت تربيته إلى رتبة جنرال في سن 31 عاما، وهو أول شخص تنحدر أصوله من أفارقة الأنتيل يصل إلى تلك الرتبة في الجيش الفرنسي.

وبالمال الذي جناه من نشر رواياته، اشترى دوما الأرض وبنى شاتو دي مونتي كريستو في بورت مارلي، وكان القصد من هذا المنزل الذي أصبح الآن متحفا، أن يكون ملاذا له، حيث أمضى



حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

ألكسندر دوما، مؤلف الرواية (1802 - 1872) يُعد من أشهر كتاب فرنسا، وأكثرهم إبداعا وتشويقا واستيلاء على قلوب القراء، لما يمتلكه الرجل من موهبة نادرة في القصة والأسلوب الذي سمي باسمه فيقال «هذا الكاتب دوماني النزعة والإجتهاد».. إنه شخص مثير للجدل وفريد الأسلوب والطريقة. القرن السابع عشر في فرنسا كان مفصلا في كل شيء تضمنه تاريخ فرنسا، حتى في الثورة التي توجتها رواية «الفرسان الثلاثة»، وحملها ألكسندر دوما صراع النبلاء ورجال الدين لكسب أكبر قدر من النفوذ والحظوة لدى الملك؛ فحشد كل فريق الفرسان والحزبين الأثداء؛ الأمر الذي أشعل نيران الفرقة بينهم، وكثيرا ما دارت اشتباكات ومبارزات عنيفة في شوارع باريس بين أشياع النبيل دي تريفل ورجال الكاردينال ريشيليو.



أمبرتو إيكو
الإنترنت لا يمكن أن تحل محل رابع الأدب كرواية ألكسندر دوما



جاك شيراك
نحن معك يا ألكسندر نتعطي صهوات خيولنا ونحن نعلم ثم نعلم

«أراميس» و«أتوس» و«بروتوس» هم الفرسان الثلاثة، وأشجع رجال النبيل «دي تريفل» وأشدهم بأسا وترباطا؛ حيث قيل إن الواحد منهم لا يُغلبه إلا جيش. لكنهم على الرغم من ذلك قبلوا انضمام الشباب الشجاع «دارتانيون» لجموعتهم الصغيرة خدمة النبلاء؛ وذلك بعد أن أعجبوا بشجاعته ونبل أخلاقه إثر إحدى المبارزات لتبدأ مرحلة جديدة من المغامرات المثيرة ضد رجال الكاردينال المتعجرفين.

ما أروعك يا ألكسندر

كانوا ثلاثة ورابعهم «دارتانيون»، الأكثر فتنة وفصاحة ووسامة، وكان دوما الأكثر لعبا والقباسا بالشخصيات والعناوين المظلمة، إلى درجة أن الإيطالي أمبرتو إيكو قد مشى على دربه في روايته المثيرة «اسم الوردة»، وقال لحفيده ناصحا «حفيدي العزيز، احفظ عن ظهر قلب قصائد الشعر، وقائع التاريخ كتاريخ الإمبراطورية الرومانية.. وحتى أسماء الشخصيات الثانوية في رابع الأدب كرواية ألكسندر دوما (الفرسان الثلاثة)، لأن الإنترنت لا يمكن أن تحل محل المعرفة، كما أن أجهزة الكمبيوتر لا يمكن أن تحل محل أدماغنا».

نحن معك يا ألكسندر.. نمتطي صهوات خيولنا، نزور كل ساحات



رواية ليست ككل الروايات